مــن كتــاب محاورات علــى دروب
المعرفة، صدر عن دار النـهار للنشر
فـــي شهر أيـــار ٢٠١٢

حــوار حــول العدالــة

شخصيات المحاورة:

صونيــــا

سليمــــان

حســــــام

ليليــــان

هيـــــام

صونيا:أهلاً بكم في داركم. أنتم الذين تعطون لهذه الدّار معناها وبهجتها لولاكم لكان حجارةً صمّاء، ولكانت حدائقه الغنّاء لا تدري كم هي غنّاء، ورياشه النادرة كم هي نادرة.
حسام: ولكن سيدته الجميلة تدري بأنّها جميلة وتدري بأنّ الآخرين يدرون.
هيام: وجمالها يؤنس الآخرين في وحشة ضياعهم في صحارى العبثية والخواء العدميّ.
سليمان: وجمالها يزرع الفرح في قلوب الآخرين ذلك الفرح الذي يُطلب لذاته ولا يُطلب لغيره.
ليليان: إنّه فرح الشعور العميق بأنّ الإنسان كائنٌ إجتماعيٌّ لا يستطيع أن يرى ذاته إلا في عيون الآخرين.
صونيا: وهذا ما نريد أن نتحاور به اليوم، الإنسان الكائن الأجتماعيّ الذي لا يستطيع أن يحقّق ذاته إلا في المجتمع العادل.
ليليان: العدالة غاية البعد الثاني للإنسان كما قال سليمان في محاورة الحريّة.
حسام: تتحدثون عن العدالة في هذا الشرق العتيق. هنا لا يوجد إلا البكاء وصريف الأسنان.
هيام: هنا لا يوجد إلا الأصوليّات والتكايا والزوايا والأحكام القرقوشية.
صونيا: بل يوجد أناس يشكلون مجتمعات تحكمها دول بواسطة قوانين ومراسيم صادرة عن مجالس نواب منتخبة.
حسام: ما يوجد هو تجمعات لا مجتمعات. المجتمع كائنٌ حيٌّ عاقلٌ مؤلف من أفراد يفعلون ببعضهم وينفعلون فيولّدون حركة غائية تدفع الجميع الى مزيد من التطوّر والإرتقاء. ما يوجد عندنا هو مجرّد أفراد تجمعوا بفعل الصدفة أو القهر، وكلّ واحد فيهم معتكفٌ على نفسه منغلقٌ على ذاته لا يفعل بالآخرين ولا ينفعل بهم. إرتباطه بالآخرين ليس ارتباطاً عضوياً غائياً بل هو مجرّد تراكم كميّ عبثي.
ليليان: وفي أحسن الأحوال يتضخّم الفرد فيصبح جماعةً منغلقةً على نفسها لا تتفاعل مع الجماعات الآخرى المنغلقة بدورها، والتي لا تبتغي في أيّ تحرك من تحركاتها التطوّر والإرتقاء بل المحافظة على كينونتها بشكلها الصنميّ الذي أفرزته العصور الوسطى.
حسام: وأتى البترودولار فعطّل الحياة الزراعية وتفاعل الإنسان مع الأرض وكذلك الصناعات الحرفيّة وتفاعل الإنسان مع الأبداع وأفرغ الأرياف من

سكّانها وكدّس النـاس فـي المـدن كلّ في جحره ينظر إلـى الآخرين بارتياب خائفاً باستمرار مـن افتراسهم لزوجتـه وأولاده وهـو الـذي يعـدّ دائمـاً الخطـط لإفتراس زوجـات وأولاد الآخريـن.
سليمان: ثمّ أتت أنظمة التعليم لتنمّي ذاكـرة النـاس وتعطيل عقولهم لتحويل أدمغتهم إلى صحارى فيها خزاناتٌ تجمع مـن المعلومات مـا أريـد لها أن تجمع ولا تحـوي نبعاً واحداً من ينابيع الخلق والإبداع.
هيـــام: إنـّه عملٌ مبرمجٌ لإنتاج موظفيـن يطيعـون السلاطين ويأتمرون بأوامرهم لا لإنتـاج مثقفيـن متواصلين مع الفكـر العلمي لهم مواقعهم فـي موكب الحضـارة المهيب.
صونيـا: ووضعت الحواجـز فـي وجـه ولادة المجتمع المدنـيّ الذي تنظمه قوانين تصدر عـن برلمانات منتخبة. فنحن حتى هذه اللحظة جماعات ترعاها فـي حياتنـا الشخصية محاكم دينيـة، تزوّجها كمـا تشـاء وتطلّقها كمـا تشـاء وتنظّم ميراثها كما تشاء، وتجعل من الرجال قوّامين علـى النساء حتـى أن المـرأة ولـو كانت أستـاذة جامعيـّة، ومؤلفـة، ومديـرة مصنع لا تستطيع أن تسكن منفـردة أو تستأجـر بيتـاً بإسمها أو تسافـر إلا بإذن زوجها. والأهمّ مـن ذلك أنها لا تستطيـع أن تعيش فـرح الصداقـة والحبّ وتمارسـه إلا خلسة عن عيون الناس وكأنها مذنبة، أمّا إذا تجرّأت وأرادت الأمومة الحرّة فهناك الثبور وعظائم الأمـورعندها تصبح زنديقـة، مرتـدة، مارقة يجب أن ترجـم بالحجارة والحقـد وكلّ ما نملكـه مـن كبت وعقـد نفسية.
حسـام: وهـذه المـدن التـي تكدّس فيها سكـان الأرياف شبه عاطلين عـن العمـل، مـاذا فيها مـن مقوّمـات المـدن مـن التواصـل والتفاعـل والحوار، أيـن حدائقها العامّة ومنتزهاتها، أيـن مكتباتها العامـّة ومسارحـها ومسابحها وقاعاتـها الرياضيّة والترفيهيّة، أين أنديتها وجمعياتها وأحزابها بل مطاعمها وحاناتها. كلّ شيء في هذه المدن فُصّل على قيـاس الجماعات المنغلقة المتحجّرة التي لا تريد أن تفتح للآخرين أو تنفتح عليهم. كلّ شيء فيـها فصـّل علـى مقـاس أصحـاب البتـرودولار الذيـن انتفخت جيوبهم وفرغت رؤوسهم وضمائـرهم. فالقيـم المسحوبـة قيمهم والعـادات المتداولة عاداتهم.
هيـــام: نسيت الفضائيات العربيّـة التـي تقدّم اللا شيء على مسرح اللا معقول بـل نسيت معارض الكتب التـي تتمثـّل العصور الوسـطى فيها بمقدار النصف، وكتب الطبخ بمقدار النصف الآخـر، ولا يبقـى للفكـر والحداثـة إلا مـا أريد تمريره قصداً لغاية فـي نفس يعقوب.

سليمان: ثـمّ يقولـون للناس إقـرأوا، لماذا أنتم أغبيـاء لا تقـرأون؟ بربّكم ماذا يقـرأ الناس والكتّـاب موظفـون أشبه بالمرايا المنطفئة التي تعكس الصور التي تتلقاها من رؤسائها في العمل والنعمة. ثم يقولـون للناس شاهدوا وماذا يشاهدون إلا المسلسلات المدبلجة والمنتقاة بعناية لكـي لا يتعلم المـرء منهـا إلا السخف والثرثـرة والشذوذ الذي يولـّد الأزدواجية فـي الشخصية.

ليليـان:أراضينا الزراعيّة تمشي بخطىً ثابتـةً نحـو التصحّـر وعقولنا تمشي بخطىً ثابتةً نحو التصحّر. أحاسيسنا، ومن منّا يتجـرّأ أن يكاشف الناس بأحاسيسه، أذواقنا، ومن منّا يتجرأ أن يتفرّد بذوق لا يقـرّه المنهج العـام للجماعـة المنغلقة. نحـن نعيش حالة إرهاب إجتماعية أملتها وقائع إستبدادية لا نستطيع إخفاء ظلاميتها مهما حاولنا.

سليمان: وأكثرنا يظنّ الإرهاب أشبـاح سلطـات أمنيـّة وأجهـزة مراقبـة حكوميـّة والحقيقـة أعمـق غوراً وأبعـد مدى بكثير. الإرهاب في بلادنا حالـةٌ نفسيةٌ وحالـةٌ إجتماعيـةٌ وحالـةٌ دينيـةٌ قبـل أن تكون حالة سلطات أمنيـّة.

حسـام: تدهشني بأفكارك كأنّك تريـد أن تبـرّيء ساحـة الأجهـزة والأشبـاح؟ هات حدّثنـا عـن الإرهاب النفسي كما تدّعـي.

سليمان: أكثـر الناس فـي بلادنـا يؤمنون بالقضاء والقدر لا لسبب إلا ليتبرَّأوا مـن أفعالهم التـي يخلقونها أمـام أنفسهم بالدرجـة الأولى، لأنهم يخافون مـن أحاسيسهم، يخافـون من أحلامهم، ويخافون مـن أفكـارهم. إذا مـا تجرّأت وتجاوزت حواجز المألـوف، إنهـا سكيولوجيـّة العبيـد التـي يحملها أكثـر الناس ويبرّرونها بأنها نهج الجماعة أو العقل الجماعيّ أو السنّة أو المألوف. خلـق الله كلّ واحـد منهم ببصمة يـدٌ متمايزةٌ عن غيرها أي مستقلة، وببصمة نفس مستقلـّة وببصمة إحساس مستقلـّة وببصمة تفكير مستقلـّة، وهم يخافون هذا التمايـز والإستقلال. ويصرّون أن يكونـوا نسخاً طبـق الأصل عـن بعضهم أو عـن مثلهم الأعلـى الذي هـو الحاكم أو المرشد الدينيّ أو السلف الذي يسمونه صالحاً.

صونيـا: لـم نفهم بمـا فيـه الكفاية بـل لم تتضح الفكرة بما يكفي.

هيـام: إنـّه الإنسان الذي يستعبد نفسه بنفسه لماذا؟ كي يبريء نفسه من أنـّه يخلق عملـه، وبالتالي هـو المسؤول عـن ذلك العمـل وليس القدر. وإذا كانت المسؤوليـة هـي الحـسّ الأخلاقـي عنـد الإنسان فمعنـى ذلك أنّ العبيد بأنفسهم لا يملكـون أيّ حسّ أخلاقيّ رغم أن أكثرهم متدينون بالطقوس ويعيشـون العمـر بأكملـه يخافـون مـن العقـاب ويرغبون بالثواب.

سليمان: هنـاك أنـاسٌ امتلأت نفوسهم بالحريـّة يخلقـون أعمالهم بإرادة عقولهم، لا

يحقدون بل يواجهون، لا يستبطنون في لا وعيهم بل يفكرون بأصوات مرتفعة، لا يقيّمون أعمالهم بردّة فعل الآخرين عليها بل بانسجامها مع قوانين العقل والطبيعة. هؤلاء الناس يفعلون الخير لأنّهم يتلذذونه ويمارسون العدالة لأنهم يعيشون بهاءها. جباههم وضّاحة وثغورهم باسمة، في عيونهم نور ونار وفي أفئدتهم شوق دائم لتخطي الحدود. وهناك أناسٌ إمتلأت قلوبهم بالخوف يعتبرون أنفسهم ألعوبة في يد القضاء، أفعالهم قدّرت لهم وأفكارهم ركّبت في رؤوسهم بإرادة من هم فوقهم لا تنضح قلوبهم إلا ارتياباً بالآخرين وكراهيّة لهم يظنّون التديّن إضطهاداً لأحاسيسهم وأحلامهم وإضطهادا لأحاسيس الآخرين يمارسون الشرّ منساقين مع فطرتهم ويُكرهون أنفسهم على الخير إكراهاً طمعاً في خير أكبر منه كمن ينفق درهماً ليقبض ديناراً. العبيد بنفوسهم هذا ما قصدته بالإرهاب حالة نفسية.

ليليان: الأحرار بنفوسهم يحبون الناس كلّ الناس، يحبون الجميل ويتلذذون بصداقته ويشفقون على القبيح ويحاولون مساعدته ليجمّل نفسه أو ليقلّل من قبحها. ينجذبون بشوق إلى المروءة والشهامة والأنفة والعفّة، يتلذذون بالعطاء والشجاعة والصداقة، يغضبون من الدناءة والطمع والشرّ ولكنهم إذا غضبوا ترفعّوا وازورّوا ولم يحقدوا أبداً، أمّا العبيد بنفوسهم فهم يكرهون الجمال لأنهم لا يستطيعون تملكه فإذا استطاعوا ذلك حجبوه حتى يذوي ويختنق لأنّ الجمال بطبيعته يريد الغنج والدلال ويزهو بنظرات المعجبين ورعاية الأصدقاء. إنهم يعتبرون المروءة بلاهةً والشجاعة تهوّراً، والسلامة في التلوّن بألوان الظروف، والصداقة باطل الأباطيل، فمن لا تربح منه بإجتماعك به مضيعةً للوقت إلا إذا كان مطيةً توصلك إلى من تربح منه. أولئك الناس لا يغضبون بل يحقدون ولا يترفعّون بل يداهنون ويتملقون حتى يحين وقت الإنتقام.

حسام: لقد أنختم على كلكلنا بثقل ظلكم وسوداويّة أمزجتكم حتى أنسيتمونا أنّ بيننا حسناوات إن لم نحرق إعجابنا بخورا تحت أقدامهنّ، فنحن نهين الجمال الكليّ فيهنّ بل نحن نزوّر النعمة الإلهية التي جعلت من الجمال مرشداً يهدينا إلى الحقّ والخير والعدالة.

هيام: نشكرك يا صديقنا حسام فوظيفة الشعر الحقيقيّة هي الدفاع عن الجمال وتحصينه ضدّ الهجمات البربرية عليه.

صونيا: وما هي الهجمات البربرية على الجمال، أنتم اليوم تتكلمون بلغة لا أفهم الكثير من رموزاتها.

هيام: التعصّب هو أحد هؤلاء البرابرة المتوحشين الذي يهاجم الجمال بسلاح

التزمّت، فيصنّم منــه مــا تحــرّك ويخرس مــا نطـق ويخفي ما ظهــر.
ليليــان: والشهوة الجامحة عـدوةٌ أخـرى للجمال لأنها تظنّــه مادة إستهلاكية فتطارده لتقنصه وتلتهمه بحقـد.
سليمان: هـذا صحيح، فالجمال ثروة إجتماعيّــة تخصّ الجميـع ولا يستطيع فرد مهما علا شأنه أن يحتكرها لنفسه لأنه بذلك يلغيها.
حســام: هــذا مؤكدٌ، فالجمال غذاء الفنانين والشعـراء والقــادة الملهمين وهــو أستاذٌ للشعوب في حقل أذواقهم وتهذيب أحاسيسهم فكيف يحــقّ لبعض الأفــراد المتسلطين إحتكاره وإخفاءه إن لم نقل إعدامــه.
صونيــا: أظــنّ هــذا يدخــل فــي الإرهاب الإجتماعيّ الذي أشار إليه سليمان.
سليمان: لا شك أنّ النزعــة الإستهلاكية تختزن الكثير من الإرهاب.
حســام: ولكــنّ قلــّة الأستهلاك تولــد الكبت ونحــن فــي هـذه البلاد نعرف ما هــي مساوىء الكبت.
سليمان: إذا إلتقى نقص الإستهلاك بالخواء النفسيّ تولــّد الكبت أمّــا إذا كانت النفس قد أكلت مــن خبــز الخيــر وشربت مــن خمــر الجمــال وشنّفت آذانهــا بموسيقــى الحكمــة وعينيهــا ببهــاء العدالــة فالأمــر يختلف تمامــاً. عندهــا يصبح الشره فــي الإستهلاك سخافةً، فالنفس العارفة تعلم أن النعم والخيرات هــي ملك المجتمع بأسره ويجب أن توزّع بعدالة كلّ حسب حاجتــه، وبما أن حاجـة الجاهـل تكـون أكثر يجب أن يعطى الجاهل أكثر من العاقل حتى يعقل ويرتــوي من تلقاء نفسه.
صونيــا: لعمري هـذا صحيحٌ، فمـن يشرب من خمرة الجمال ويأكل من زاد المعرفة لا يمكن أن يشعر بالكبت أبــداً حتى لو صام عن كل الملذات التي يسمونها مادية.
ليليــان: ولكن العدالة هــي فــي التــوازن، فنعطــي ما لقيصر لقيصر وما لله لله.
سليمان: كلامـك صحيحٌ فــي شكله خطأٌ في جوهره، هو صحيحٌ لأننا تعوّدنا أن نقسّم الإنســان إلــى قسمين نفسٌ وجسدٌ، وتعوّدنــا أن نقــول إنّ ملذات النفس هــي العدالة والحكمة والجمال والعطاء والإبداع وملذات الجسد هــي أطــايب المأكــل والمشرب وممارسة الجنس والتملك الذي يغــدو شرهاً محموماً لا حـدود لــه. وهــي خطــأ لأن الإنسان ليس مخلوقاً ثنائياً بل هــو واحــدٌ غير قابـل للتجزئة لأنّ الجسد فــي الواقــع ليس إلا آلةً للنفس ينفـّذ ما أمرته به، وظننا أن النفس تتــوق إلى الجمال والجسد إلــى الجنس أو النفس تتوق إلى العدالة والجسد إلــى التملك الشره، هذا الكلام غير صحيح فالجسد فــي الواقــع لا يحتــوي علــى أيـّة شهوة علويـّة أو سفليّة بـل هو آلة تمارس النفس مــن خلاله فضائلها ورذائلها، فنزعة العدالة موجودة فــي النفس وكذلك نزعـة

التملك الشره، ونزعة المعرفة موجودة في النفس وكذلك نزعة الجهل والفوضى وتحطيم أي نظام. إنّه الصراع الأبديّ السرمديّ بين النور والظلام داخل النفس الإنسانيّة إنّه الصراع بين العقل والجهل، بين الخير والشرّ بين الكائن الإجتماعيّ الشموليّ والكائن الفرد الذي يضّخم فرديته حتى تنبسط على الكون بأكمله.
ليليان: أظنّ الحوار يسلك مسلكاً صحيحاً، فحتى الشهوة الجنسية والتي نسميها شهوةً حيوانيّةً لا يمارسها الحيوان إلا مرّة واحدةً في السنة بقصد الإنجاب والمحافظة على بقاء النوع ونحن نمارسها كلّ حين بغاية التلذذ، فما دخل الحيوان في هذا الموضوع.
حسام: بل أكثر من ذلك، فحتى الرجل العاجز جنسياً والذي تعطلت قدرته كلياً على الممارسة، يجمع النساء ويمارس معهنّ فجور التعرّي والستربتيز والأحاديث الدنيئة وألف لون ولون من الإباحة بغية الحصول على اللذة وهي حتماً في هذا المجال لذة نفسيّة وهذا ما يبرهن على صحة كلام سليمان بأنّ مصدر اللذات النفس وليس الجسد.
هيام: ولكنّي لا أرى في الموضوع مجرّد لذة نفسيّة بل أتلّمس إرهاباً إجتماعياً، فلنسأل أنفسنا هذا السؤال. ما هي القدرة التي إستطاع هذا الرجل العاجز بواستطها جمع كلّ أولئك النسوة للترفيه عنه بل لتملق شذوذه؟ إنّه المال بالدرجة الأولى والسلطة بالدرجة الثانية أو الأثنان معا لأنّه في العالم الثالث لا يمكن فصل الأثنين عن بعضهما وإذا كان المال هو فائض قيمة أتعاب الشغيلة أو فائض قيمة ما تعطيه الأرض التي هي ملك للمجتمع بأكمله من ثروات ومعادن وخامات عندها نقول إنّ بعض الأفراد يسخّرون ما هو ملك المجتمع أصلاً لغايات فرديّة تجرّ الويل عليهم وعلى المجتمع برمّته.
صونيا: هذا أمرٌ طبيعيٌّ وإلا كيف تفسرين أن العالم العربيّ يملك أكبر ثروة نقديّة ثمناً للبترول المصدر وهو من أفقر بلاد الله وأغلبيّة أهله مذلون مهانون جائعون جاهلون والثروات تهدر على الكاس والطاس والدفّ والمزمار وإستيراد كل أنواع الإستهلاك لطبقة صغيرة لا تتجاوز العشرة بالمئة على أبعد إحتمال.
هيام: بل باستطاعتنا أن نقول إن العالم العربيّ هو أكبر بقعةً مكشوفةً في هذا الكون فلا أمنٌ غذائيٌّ فيه وكلّ غذائه مستوردٌ ولا أمنٌ إجتماعيٌّ فأنظمته بأغلبيتها لا تحترم حقوق الإنسان وهناك خوفٌ دائمٌ على الأقليّات، ولا أمنٌ إقتصاديٌّ وبراهين ذلك أنّ أدمغته تهاجر باستمرار إلى أمريكا وأوروبا، ولا حتى أمنٌ عاطفيٌّ فالحبّ محرمٌ باسم التديّن، والصداقة دائماً موضع ارتياب وحتى

إخـوّة الرحـم مزقتها المصالح المتضاربـة.
ليليـان: وهنـاك ما هـو أدهى وأمرّ، فشخصية الفرد ذابت بشخصية قبيلته فأصبحت القبيلة أنا كبيرة ولم تعد نحن، فلا الفرد قادرٌعلى تلمس شخصيته ووجـوده كإنسـان وتحقيـق ذلـك الوجـود، ولا المجتمع قادرٌ علـى تلمس وجوده وتحقيق ذلك الوجود، إلتغـى الفرد والتغـى المجتمع والباقـي علـى المسرح هـو فـردٌ كبيرٌ لا كالأفراد اسمه القبيلة وهـذا أقصـى درجـات الإرهاب لأنـّه إلغـاءٌ مطلقٌ لعقل الفرد الحـرّ واستبداله بعقـل إسم جمع كما يقال في قواعد اللغة العربية لا مفـرد له اسمه عقـل القبيلة. وكذلك الـذوق وكذلـك أيُّ تمايـز.
هيـام: نحن نعيش ايديولوجية سيكولوجية القبيلة وتمظهرها الإجتماعـي والسياسي والإقتصادي، فالفرد ملغى والمجتمع ملغى والدولة ربما ملغـاة إنها حالـةٌ فريدةٌ بـل هـي حالةٌ مستعصيةٌ.
صونيـا: عرفنا الآن كيف يكـون الإرهـاب النفسيّ والإجتماعيّ ولكننا لا نعرف إلا الشيء اليسير عن الإرهاب الدينيّ والسياسيّ.
سليمان: قد تتفاجئين عندما أقول لـك إنّ الإرهابيـن الدينـي والسياسي همـا وجهان لعملة واحدة. فالحاكم الذي يعتبر نفسه ظلّ الله على الأرض رغبتـه هـي القانـون ومصلحته هـي الناموس وبالتالي تصرفاته لا تقاس بمبدأ أو بمنطق أو بمنهجية بـل تصرفاته هي المبدأ وهي المنطق وهي المنهجية، ونحن نعرف هذا النوع من الحكام منذ عهد الفراعنة وملوك بابل وآشور وصولاً إلى المماليك والأتـراك والأرنؤوط.
ولكن مـا نتجاهلـه أحيانـاً هـو أنّ أولئك الملـوك المتألهيـن كـان يبـرّر وجودهـم وتصرفاتهم كهنةً من صنفهم، رغباتهم أيضاً هـي القانـون وخواطرهم هي الناموس وكـان مسـار الحكـام متلازمـاً مع مسـار الكهنة وأصحاب المساريـن معاً يعتبران الشعب قطيعـاً قيمة وجـوده تحدّدها الخدمـات التي يقدّمها إلى الحاكم والكاهـن وإلا فلا مبرّر لوجوده. فالإنسان برأي هؤلاء لا يستمدّ قيم وجوده من إنسانيته ومن كونـه كائناً عاقلاً حراّ مريداً يخلق عمله ويتحمّل مسؤوليته بـل في كونـه عبداً مطيعاً منفذاً لأوامر سيّده، وهـو مـن سيّده كالظلّ مـن صاحبه حتى إذا ما ذهب السيّد تمّ توريثه لسيّـد آخـر أو يدفـن حيـًّا مع سيده القديـم. ولهذا لـم يشعـر الناس في هذا الشرق أبـداً ومنـذ آلاف السنين بأنّ الحاكـم نبت من تربتهم فهو أبـن بيئتهم والمعبّـرعـن تطلعاتهم بـل كان شعورهم أنّ الحاكم من معـدن الآلهة كرّسه القـدر عامـل قهـر عليهم والتمـرّد عليه هـو تمـرّد علـى إرادة القدر. وأتـى الكهنة لينمّـوا فـي قلوب النـاس عقـدة الإحساس بالخطيئة فهم أولاد الخطيئة والرذيلة. والقهر الذي يعانونـه

هـو نتيجةٌ حتميةٌ لتلك الخطيئـة، عليهم أن يتحّملوا أوزارها بصبر وطاعـة ليتمتعوا بالسعادة فـي عالم آخـر، وإلا إعتبـروا كفـرةً عصاةً، والكافر عقوبته التعذيب فـي الدارين معاً.

حسـام: هذا كـلامٌ منطقـيٌّ يبرهـن صحتّه أن حكـّام الشرق كانوا يصنعون جنودهم مـن غلمان أغراب يشترونهم مـن أسـواق النخاسة لا يـدري الواحـد منهم أصله أو فصله، ثـمّ يحوّلونهم إلـى وحوش تتقـن أخسّ أساليب القتـال وأسوأ طبائـع التعديّ ويسلطونهم علـى الناس الذين يسمّون مواطنين.

صونيـا: يا إلهي كم هذا مرعب، غلمان لقطاء يدربون ليصبحوا وحوشاً ثـم يُطلقـوا فـي ساحات المجتمع ونحـن نحلم بالعدالة.

هيـــام: أنـا أؤمـن بهذا الكلام، ولولا ذلك كيف استطـاع المماليك وهم لقيط غريب والأتراك وهم برابرة متوحشون أن يحكموا بلادنا ويُرضخوا النـاس لأحكامهم، بـل كيف استطـاع مغامرٌ ألبانيٌّ أرنؤوطيٌّ غريب مثـل محمّد علـي أن يحكم في مصر ويورّث الحكم لأسرة تعاقب أبنـاؤها علـى الأستثمـار بالسلطة ردحاً من الزمن.

ليليـان: ولهذا السبب كانت الأديان في هذا الشرق طقوساً وأسراراً إحتكر الكهنة فكّ طلاسمها، وهـي لا زالت حتـى اليوم تعبّـر عن نفسها بالتعاويذ والطقوس والزوايا والتكايا والتبـرّك وما أشبه ذلك.

هيـــام: إنها طقوسٌ يرهبها الناس كلّ الناس، وهم لا يفهمون من معانيها شيئاً حتـى المتعلمون والمتنفذون يمارسونها في لا وعيهم. وهـل التبصيـر والتنجيم وتحضيـر الأرواح إلا إرهاصاتٌ مـن تلـك الأسرار الطقسيّة القديمة؟

صونيـا: وأين أنتم مـن الإيمـان بوجود الجنّ والعفاريت والأرواح الشريـرة حتـى إنني عندما أقرأ في صحف هذه الأيام عن الأشباح الأمنية أضحك في سرّي وأقول: لـو لم يكـن أبناء الشرق معتاديـن علـى فكـرة أشباح الجـنّ والعفاريت والأرواح الشريرة وهي جزءٌ مـن موروثهم السايكولوجي والسوسيولوجي لما سلّط عليهم هذا النـوع الجديد مـن الأشباح.

حسـام: بـل لنقـل طالما أنهم عاشـوا أشبـاح الجنّ والعفاريت منذ مئـات السنوات واعتبروها مـن إرثهم الدينـي الذي بـه يعتـزّون ويفاخـرون، واعتبـروا أن التمرد عليها كفـرٌ وهرطقة فلماذا اليوم لا يستمرئون أشباحهم الجديـدة ويلبسون لها الخـرز الأزرق ويكتبون لها التعاويذ شأنهم فـي الماضـي.

هيـــام: ولكنّ ما يدهشني أنّ هناك أيدويولوجيات ثوريـّة، اضطهدت الأديان عندما وصلت إلـى السلطة، ومـا تفـرّع عـن الأديـان من طقوس وأسرار وعلّمت الناس

إحتقار هذه الطقوس، ولكنها ما لبثت أن انهارت حتى وجدنا تحت جبّتها أصوليات دينية أمرّ وأدهى من تلك الموجودة في بلاد يمارس أهلها الطقوس والأسرار الدينيّة.

سليمان: هذه ملاحظةٌ جميلةٌ ولكنّ الجواب عنها بسيط وغير معقّد. فالأنظمة اليساريّة وإن كانت ملحدة، لا تؤمن بالطقوس الدينيّة إلا أنها أنظمة ديكتاتوريّة بوليسيّة إضطهدت الحريّات وصادرت العقول ولم تحترم حقوق الإنسان وبذلك كانت أصوليّة ملحدة تغذي الأصوليّة الدينيّة رغم أنها في ظاهر الأمر تضطهدها فكلاهما من نفس المعدن ويستعملان نفس المنهجيّة التي هي إحتقار إرادة الإنسان ومصادرة عقله وبرمجة أحلامه وآماله هذه بإسم أيدولوجيات الحزب الواحد وتلك باسم القدر.

ليليان: نسيت أنّ الدولة اليساريّة الثوريّة نصبّت نفسها المعلم الوحيد للناس، ورب العمل الوحيد للناس فغدا الناس يتربّون كما دجاج المزارع نفس اللون ونفس الذوق وإذا ما تمرد أحدهم وتمايز عن الآخرين كان يدجّن في ميدان العمل، فعليه أن يرضي ربّ العمل الذي هو الدولة وإلا أصبح مشرداً جائعاً منبوذاً لا يشفع به عقله ولا تمايزه. فيضعف ويرتاب بصحة موقفه ويعود إلى الإحساس بعقدة الذنب ثم يتوب ويعود حيواناً أليفاً إلى أحضان صاحبه.

هيام: نستنتج من كل هذا أنّنا لا نستطيع أن نحصّن أنفسنا من الأصوليات إلا بأنظمة ديموقراطيّة تؤمن بأنّ الإنسان سيّدٌ حرٌّ مستقلٌّ، بإرادته يخلق عمله بعقله ويتحمل مسؤولية ذلك الخلق لا يدّعي إحتكار الحقيقة لنفسه مطلقاً ولا يرتاب بالآخرين بل يحاورهم، لا يحاول إلغاءهم لأنه يعلم من إلغائهم مقدمّة لإلغاء نفسه.

ليليان: إنها الديموقراطية، فالإنسان المستبدّ ظالم لنفسه وظالم للآخرين يحاول إلغاء الآخرين، الأمر الذي يجرّه إلى إلغاء نفسه والنظام المستبدّ ظالمٌ لشعبه وظالمٌ للشعوب الآخرى.

حسام: أعطني حريّة وديموقراطيّة أعطِك إنساناً سعيداً يتطوّر دوماً باتجاه كمال نوعه.

سليمان: الحريّة تؤخذ، ولا تعطى، بالنضال تحت مظلّة قوانين العقل وقوانين الطبيعة تؤخذ الحريّة، وحذار من النضال تحت مظلة الغرائز والشهوات والأحقاد وحبّ الإنتقام، فهذا نضال يؤدّي إلى مزيد من العبوديّة ومزيد من الضيّاع في العبثية القاتلة.